عفيفة

أحمد أبو خليل القباني

عفيفة

تأليف
أحمد أبو خليل القباني

هنـــداوي

عفيفة

أحمد أبو خليل القباني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٣ ٢٩٩٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٠٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الفصل الأول	٧
الفصل الثاني	١٧
الفصل الثالث	٢٩
الفصل الرابع	٣٩
الفصل الخامس	٥١

الفصل الأول

الجزء الأول

(دار وبه عفيفة.)

عفيفة:

بحمدك يا مولاي في السر والجهر وبالشكر أحظى بالمزيد مدى الدهر
إلهي لك الإنعام يا خير منعم رَزقت جميع الخلق في البر والبحر
رحِمْت خضوعي وانكساري وذلتي وخلَّصتني من رِبقة الأَسر والضُّر
وأعليت قَدري إذ غدوت قرينة لشهم عليٍّ الشأن والمجد والقَدر
له كرم يُغني عن السحب مثلما له طلعة تُغني عن الشمس والبدر
فيا رب متِّعني بطول حياته وهَبْه جزيل الخير يا جابر الكسر

اللهم لك الحمد والشكر، على ما منحتني به من رِفعة القَدر؛ إذ حنَّنتَ عليَّ مولاي الأمير ذا الرتبة الجليلة، فاشتراني وأعتقني وجعلني لحضرته حليلة، وأفرغ عليَّ التحف الثمينة، واشترى لي قَيْنتين وهما أمينة وفطينة، وأمرهما بخدمتي؛ لأحصل على راحتي، فأسألُ الله أن يحفظَه من كَيد الحسود، ويمتِّعَنا ببقاء ذاته في الوجود.

الجزء الثاني

(عفيفة – أمينة)

أمينة: قد شرَّف يا مولاتي سيدي الأمير الجليل.

عفيفة: أصحيح ذلك يا أمينة؟
أمينة: نعم، وها هو قد قرُب من الباب.
عفيفة: اذهبي إذن، وأحضري المطربين الحسان؛ ليطربونا بالسماع ورخيم الألحان.
أمينة: سمعًا وطاعةً.

الجزء الثالث

(عفيفة)

عفيفة: أشكر أيادي الزمان البيضاء، التي أَنْهَلَت عليَّ أعظم هناء؛ حيث أنعمت عليَّ بقُرب سيدي الأمير، الذي أحيا بفضله فؤادي الكسير.

الجزء الرابع

(عفيفة – الأمير علي)

عفيفة:

أهلًا وسهلًا يا أمير ومرحبا فرَّقت أتراحَ النوى أيدي سبا
وجمعت شمْل الأُنس يا كلَّ المُنى وسقيتَني كأس السرور مطيبا

علي: وأنتِ أنعمي أيتها العفيفة، والحبيبة اللطيفة الشريفة.
عفيفة: وأنت أنعم مساء وصباح، يا مُنى النفوس وحياة الأرواح؛ لقد أحييت يا مولاي قلبي، كما أذهبت بمزيد إحسانك كربي، فأسأل العظيم المنان أن يُبقيَك سعيدًا مدى الزمان.
علي: قد أنجزت (يا عفيفة) الأيامُ تلك المواعيد، وقلَّدني الله من خزائن السرور بالمقاليد، واستقبلتْني ثغورُ اللذات بواسم، وجعلَت أوقاتي أعيادًا ومواسم، فعليَّ أن أُقيمَ سوق الطرب، وأجعلَ قُربَكِ بعد الفِراق غاية الأَرَب، وأجتليَ وجوه الأفراح المتتابعة، وأجتنيَ من الوصل ثمارَه اليانعة، وأتمتعَ من حديثِكِ بكل مطلوب، إلى أن تأذنَ شمسُ حياتي بالغروب.

أتاني الأُنسُ يسعى بعد حين على رغم العِدَى فأقرَّ عيني
ووافتني عفيفة بالتهاني لأقضي من لَمَى اللذات دَيني

الجزء الخامس

(عفيفة – الأمير علي – المطربون)

المطربون (مقام حجاز دوكاه – أصول نوخت ٧ من ٤)[١]:

زارني مرادي وكان الطبيبْ
واشتفى فؤادي وجاد الحبيبْ
والهنا ينادي بموت الرقيبْ
ما هنا عواذل كفينا الملام

خانة

مرحبًا وأهلًا بسيد الملاح
ناظري تملَّى بنور الصباح
ذا الرشا تجلَّى ووصله أباح
ليلة تعادل صفاها بعام

علي:

على المعالي شهدنا ميل أغصان تُدني التهاني بأوزان وألحان
يا حبذا وقت أُنس لا نظيرَ له هذا هو العيش لولا أنه فاني

لقد أحسنتم بالإطراء والإطراب، وفتحتم لنوافذ السرور أعظم باب، وأنعشتم منا الأرواح، وأسكرتمونا بدون راح، فلكم الإذن بالانصراف، بغير استثقال منكم ولا استخفاف (يذهب المطربون).

[١] تلحين كامل أفندي الخلعي.

الجزء السادس

(عفيفة – الأمير علي)

عفيفة: لقد أرعبتني يا ذا الفخار، وشعرتُ منك بتشويش الأفكار؛ إذ قلت:

والـوقـت صـافٍ لا يـكـدِّرُه شـيءٌ وميـلاتنـا ميـلات أفنـان
وقد عكفنا على اللذات من طرب هذا هو العيش لولا أنه فاني

علي: لقد صدأتْ يا عفيفة مِرآةُ فكري، وغشى الكدر أسارير سرِّي، واعترتني هزَّة وبلبال، فسبحان محول الأحوال!

الجزء السابع

(عفيفة – الأمير علي – حاجب)

حاجب: قد حضر يا مولاي من عند الأمير زهير رسول، يريد الحظوة بالتشريف والمثول.

علي: أحضرْه بالعجل.

حاجب: أمرك أيها الأجلُّ.

الجزء الثامن

(عفيفة – الأمير علي – الحاجب – الرسول)

الرسول (مقام حجاز دوكاه – أصول سربند)[٢]:

أنجِز الصديق المكروب صـــاحـــب الـــوفـــا
واقرأ الجواب المكتوب دُمـــتَ فـــي صـــفـــا

[٢] قد: «ساعد الغزال المخضوب».

سيِّدي الأمير المحبوب سـعـده غـفـا
فانجِدِ الكريم المغصوب سـيـفُـكَ الـشِّـفـا

سلسلة

ربنا عظيم حنَّان، بارئ لطيف منان، بالفتَى المقصر رحمان.

علَّه يرينا المرغوب فـي أهـل الـجـفـا
مر بالشروط والأسلوب جـورهـم طـفـا

(يفض الأمير الكتاب ويقرؤه):

باسم المعز المذل، مسبب كل عقد وحل، من الأمير زهير الكسير إلى الأمير علي أكرم حليف ونصير، اعلم يا سيد الأبطال والفرسان، أنه قد حلَّت بنا الأعداء من كل مكان، وبدَّدوا جمعنا، وأفسدوا أرضنا، فأدركْنا يا أصدق الخلان، فليس الخبر كالعيان.

خان الزمان زهيرًا والعِدَى ظلموا لما استطالوا فما رقُّوا وما رحِموا
قد شتَّتوا شملنا من كل ناحية وأفسدوا أرضنا مذ بغتة هجموا
وبادرونا وخيل الحي غائبة ونالوا منا مُناهم بعدما انتقموا
كم قد أبادوا شجاعًا من فوارسنا تعنو له العرب في الهيجاء والعجم
غَوثًا وحاشاك أن ترضى بذلتنا إن الأعادي بنا فازوا وقد غنموا

علي: ومن فعل بكم هذه الفعال؟
الرسول: بنو ربيعة يا سيد الأبطال، وأميرهم نازح الغدار، الذي لا يحفظ حقوق الجار.
علي:

بشِّر ربيعة أن قد جاءهم عدم من حد سيفي ورمحي حين أنتقم
أنا الشجاع إذا خَيل العِدَى طلعت يوم الوغى وبحار الحرب تلتطم
ولي عضاب هو الضد الألد على هام الفوارس وهو الضد والحكم

تلقى الفوارسَ شعثًا يوم معركة عبس الوجوه ووجهي ثَمَّ يبتسم
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(للرسول) ارجع إلى الأمير زهير وقبِّل يدَيه، وقل له: إني قادم بفرسان عشيرتي عليه.

رسول: أعطاك مولاك ما تتمناه.

علي: سِرْ ملحوظًا بعناية الله (يخرج الرسول). (للحاجب) وأنت فأحضر قواد الحرب إلى هذا المكان.

الحاجب: أمرك يا عليَّ الشأن (يخرج الحاجب).

الجزء التاسع

(عفيفة – الأمير علي)

علي:

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة وإن تسلت أسلناها على الأسلِ
لا ينزل المجد إلا في منازلنا كالنوم ليس له مأوًى سوى المقلِ

الجزء العاشر

(عفيفة – الأمير علي – الحاجب – القوَّاد)

القواد (شاهناز الحجاز – أصول مدور)[٣]:

شهمنا المحبوب في صفا الزمانْ
فُزتَ بالمطلوب يا عظيم الشان
جِئْنا كالمرغوب سيد الشجعان
حاسدك مغلوب من إله ديَّان

[٣] قد: «زارني المحبوب».

علي: اعلموا أيها القُوَّاد الأنجاب، أنه جاءني من عند الأمير زهير كتاب، يخبرني فيه أن بني ربيعة أوقعوا به وبقومه كل فعلة شنيعة، ونهبوا المواشي والأموال، وسبوا الحريم والأطفال، وهو طالب منا الإعانة، وهي في ذمتنا له أمانة؛ إذ له علينا أيادٍ سابقة، وهو عزيز لدينا ومودته صادقة. فماذا أنتم قائلون أيها الأخيار؟

قائد: كلنا تحت الأمر كما تختار، فمُرْنا بالركوب أيها الأمير، لنذيق الأعداء من حربنا عذاب السعير.

وا شوقَ قلبي لحرب لَذَّ لي فيها ... نصر به بلغت نفسي أمانيها
ما الفخر إلا بساحات نجول بها ... وقد كست جثث القتلى ضواحيها
أنا المجرب رب البيض باذلها ... جودًا وعند ازدحام الخيل حاميها
إن تعطَشِ الخيل يوم الحرب أوردها ... بحر الدماء فأسقيها وأرويها
أو تشتكي جوعها ذات المخالب من ... لحم الفوارس أغذيها وأقريها
ويل العدو إذا ما جئت أطلبه ... تضيق في عينه الدنيا وما فيها

علي: بارك الله في همَّتِكم المشكورة، وشمائلكم المحمودة المبرورة، فتأهبوا إذن للذهاب، وانتظروني عند قِلاع شهاب، حتى ألبس ملابسي الحربية، وأتبعكم بعد برهة جزئية.

القواد (مقام شاهناز الحجاز – أصول مدور):

هيَّا يا أبطال ... حومة الميدان
واظعنوا في الحال ... أيها الشجعان
شتِّتوا الأنذال ... في رُبَى الوديان
صاحب الإجلال ... يحبُنا الإحسان

الجزء الحادي عشر

(عفيفة – الأمير علي – الحاجب)

علي:

أنا لي همَّةٌ أشدُّ من الصخـ ... ـرِ وأقوى من راسيات الجبال
وحُسامًا إذا ضربتُ به الدهـ ... ـرَ تخلَّت عنه القرون الخوالي

يا سباع الفَلا إذا اشتعل الحر ... بُ اتبعيني بين الرُّبَى والتِّلال
ثم عودي من بعد ذا واتركيني ... واذكري ما رأيته من فعالي
وخذي من جماجم القوم قوتًا ... لبنيك الصغار والأشبال

عفيفة:

وا عنائي وذلتي وانتحابي ... غش عين السرور غين النكال
ويح دهري يعطي الفتى بيمين ... ثم حالًا يردُّه بالشمال

علي: ولمَ يا حبيبتي هذا الأسف؟
عفيفة: على فراقك يا صاحب الشرف ... آه ما خلق الفراق إلا لتعذيب العشاق.

ألا ليتَ الزمان بُلي بعشق ... وذاق دقيقة طعم الفراق
فلو يا دهر ذقتَ فِراق إلفٍ ... لما فرَّقت ما بين الرِّفاق

علي: لا تكوني جزوعة يا شقيقة الشمس والبدر، فقريبًا بعون الله نرجع بالفوز والنصر، بعدما نبيد الأعداء، ونفرِّق شملهم في البيداء. واعلمي أيتها البهية، أن شهامتي العربية أبَت أن تردَّ رسول الأمير زهير بالخيبة والحرمان، مع ما له علينا من الأيادي وجميل الإحسان. فتذرَّعي بالصبر على هذا الفراق، والأمل من الله أن يقرِّبَ أيام التلاق.
عفيفة: ومن أزمعتَ أيها الهمام، أن تجعله وكيل ديوان الأحكام؟
علي: قد أزمعتُ يا ذات الوجه الوسيم، أن أوكِّل عليكم وعلى الحكومة الأمير سليم؛ لأنه بالدين والسياسة فريد، وبالصيانة والعفاف وحيد. (للحاجب) فسِرْ وأحضره بالعجل.
الحاجب: أمرك أيها الأجلُّ.

الجزء الثاني عشر

(عفيفة – الأمير علي)

علي: اعلمي أن هذا الإنسان، عفيف الطرف واللسان، ثاقب الفكر، بارع في النظم والنثر، صادق أمين، لا يخون ولا يَمين، فأكرمي مثواه يا ذات الخفر، إلى أن أعود بالنصر والظفر.

عفيفة:

سمعًا سأغمره بفضلك سيدي وله بمنحتك المحل الأعظم
فلأجل روحٍ ألف روح تُفتدَى ولأجل عين ألف عين تُكرَمُ

الجزء الثالث عشر

(عفيفة – الأمير علي – سليم)

سليم (إنشاد حجاز، ولا بأس من أن يكون البيت الثاني من الراست نوا، والهبوط على الحجاز الدوكاه):

دعوتني يا أميرًا وافي الذمم فجئت أسعى إلى لقياك كالخدم
وقلت لما أتاني سامي أمركم سعيًا على الرأس لا سعيًا على القدم

علي: مرحبًا بك أيها الصديق الصادق، والخِلُّ الموافق، أتدري يا أوحد الخلَّان، لِمَ دعوتُك الآن؟

سليم: لا ومكوِّن الأكوان.

علي: اعلم يا طاهر الجنان، أني سأسافر لنجدة الأمير زهير، وأنقذه بإذنه تعالى من الضَّير؛ لما له من كرم المحتِد والمروة، ومحاسن الأخلاق والفتوة، وقد جعلتُك في غيابي نائبًا لبيت الأحكام، وأمينًا على حرمي أيها المصون المقدام، وسأنبه على جميع المأمورين والرؤساء والموظفين ألَّا يُمضوا شيئًا من غير إطلاعك عليه، والله خليفتي؛ إذ لا ملجأ إلا إليه.

سليم: أشكرك يا مولاي على حسن الظن بالضعيف، وسأجتهد بإمضاء أمرك المنيف.

علي: هيَّا ذات الحور، فقد آن وقت السفر.

عفيفة: صبرني يا رباه، على الفراق وبلاه (يخرج الجميع).

الجزء الرابع عشر

(سليم)

سليم: ها قد بلغتُ مرادي، وسأشفي من عفيفة فؤادي، وإذا ما طاوعتني على بلوغ الآمال، أذيقها عذاب الموت والنكال.

(مقام شاهناز الحجاز.)

آهِ وا شوقي لأوقات الوصالْ والهوى نحوي براح الأُنس مال
يا لقومي عز صبري في غزال أن تثنَّى يزدري السمر العوال

(سلسلة (١))

هيهات أن تخفي العيون سِرَّ الذي وَجْدُه مصون
واللحظ يدعو ذا الشجون كن مغرمًا بي فيكون

(سلسلة (٢))

قلبي غدا مُضنًى كليم ولم أجد لي من نديم
فاغدق على العاني سليم الستر مولانا العظيم

(تنزل الستار.)

الفصل الثاني

الجزء الأول

(عفيفة في دارها.)

عفيفة:

رويدك قد أفنيت يا بين أدمعي ... وحسبك قد أحرقت يا شوق أضلعي
إلى كم أقاسي فرقة بعد فرقة ... وحتى متى يا بين أنت معي معي
لقد ظلمَتني واستطالت يدُ النوى ... وقد طمِعت في جانبي كل مطمع
فيا راحلًا لم أدرِ كيف رحيله ... لِمَا راعني من خَطبه المتسرع
ولمَّا قضى التوديع فينا قضاءه ... رجعت ولكن لا تَسَلْ كيف مرجعي
جزى الله ذاك الوجه خير جزائه ... وحيَّتْه عني الشمس في كل مطلع
ويا رَبِّ جدِّد كلما هبَّت الصَّبا ... سلامي على ذاك الحبيب المودع
قفوا بعدنا تلقَوا مكان حديثنا ... له أَرَجٌ كالعنبر المتضوع
أأحبابنا لمْ أنسَكم وحياتكم ... وما كان عندي وُدُّكم بمضيع
لحا الله قلبي هكذا هو لم يزل ... يحِنُّ ويصبو لا يُفيق ولا يَعي

قضت الأيام عليَّ رغم أنف الطرب، بما يبدل صفو عيشي بأكدار الكرب. آه وا عِظَم عنائي، وا شدَّة شقائي وبلائي! كيف ألتجئ إلى الصبر بعد تلك الحلاوة، وأميس في لباس سرور بغير طلاوة، فارقَتْ رُوحي الجسد، واعتراني كلُّ همٍّ ونكد. أين ذهب روح قلبي، وحياة مهجتي ولبُّ لبي؟ ولا طاقة لي على فراقه طرفة عَيْن، وصرْتُ بعدَ بُعدِه هدفًا لسهام البَيْن.

يـعـانـدنـي دهـري كـأنـي عـدوُّه وفـي كلِّ يـوم بـالـكريـهـة يـلـقـانـي
فإن رُمتُ خيرًا جاء دهري بضدِّه وإن يصفو لي يومًا تكدَّر في الثاني

آه، وا حرَّ قلباه!

لولا مفارقة الأحباب ما وُجدت لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلا

الجزء الثاني

(عفيفة – أمينة – فطينة)

عفيفة: أمينة.
أمينة: نعم.
عفيفة: فطينة.
فطينة: نعم.
عفيفة: قد انفردتُ في هذا المكان؛ لأطالع دروس الأشواق والأشجان؛ فشخص الأمير تجاه ناظري، والجزع بادٍ على باطني وظاهري، وقد حاولتُ تجرُّعَ الصبر فردَّته النفس، ولا أدري كيف استحال طالع سعدي إلى النحس! فهل يرجع الأمير وأراه، أو أقضي شهيدة هواه؟
أمينة: أراكِ عاهدتِ عهدَ الخنساء، وأوقعتِ نفسَكِ في البلاء، وما في الأمر يا ذات الحور، ما يستوجب هذا الكدر، فتسلي بما يروح الأرواح، وينفي الهموم ويُذهب الأتراح، وإن شئتِ ذهبتُ لإحضار المطربين الحسان؛ ليزيلوا عنك الفكر برقيق الألحان.
عفيفة: لا بأس، فأحضري المطربين في الحال، عسى بوجودهم ينتعش مني البال.
أمينة: أمركِ يا ذات الجمال (تخرج).

الجزء الثالث

(عفيفة – فطينة)

عفيفة: إنني يا فطينة، لا أزال بعد الأمير حزينة، ولا يطربني إنشاد سعيد الفريد، ولا تحركني أصوات نديم الرشيد، ولكني أعلل النفس بالمحال، راجية من الله حسن المآل.

فطينة: لا ريب يا مولاتي بعَون السميع البصير، يرجع مكلَّلًا بالنصر سيدي الأمير، فارفعي عنك هذه الهموم، وقريبًا تنقشع عنا غياهب الغموم.

الجزء الرابع

(عفيفة – فطينة – أمينة)

أمينة: قد أحضرتُ يا مولاتي أرباب السماع.
عفيفة: لا بأس فليدخلوا.

الجزء الخامس

(عفيفة – فطينة – أمينة – المطربون)

المطربون (ينشدون بعد إهداء التحية بانحناء الرءوس):

(مقام حجاز دوكاه – أصول مصمودي.)

نَفْسٌ أمانِيها تُعَلِّلُها تعلها تارةً وتنهلها
ولوعة في الفؤاد أصعب ما يذيب شُمَّ الجبال أسهلها

(خانة شاهناز.)[1]

وفي سبيل الغرام لي كبد تبيت أيدي النوى تململها

(لحن شاهناز الحجاز – أصول مصمودي.)[2]

عفيفة (بهيئة ذهول):

فارحموني وامنحوني نظرة بالعين
عيل صبري ضاق صدري وبراني البين

[1] هذه الخانة لا تنشد إذا غنت عفيفة اللحن الذي يليها، وهذه الخانة من تلحين كامل أفندي الخلعي.
[2] تلحين كامل أفندي الخلعي.

عفيفة

سلسلة

فاتركوني في عذابي يا أخلَّاء الغرام
هاج شوقي وانتحابي وبرى جسمي السقام

دور

غاب عني نور عيني صفوة الخلان
جار دهري طال هجري فاسكِتوا الألحان

سلسلة

ساعدوني يا رفاقي في احتراق واشتعال
قرِّبوا يوم التلاقي زاد بي البلبال

(يخرج المغنون.)

الجزء السادس

(عفيفة – فطينة – أمينة)

أمينة: قد أزهقتِ رُوحَكِ أسفًا، وأورثْتِ جسمَكِ ولهًا وتلفًا، فاستعيني بالصبر على نوائب الدهر، والعاقل يا مولاتي لا تستفزُّه الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، وأنتِ أعلى من أن تَدَعي التماسك وهو مرجع اللبيب ومأواه، وتتهالكي في الجزع وهو منزع الجهول ومغزاه، فما هذا أيتها الأميرة؟!

عفيفة: عذرًا يا شقيقتي المنيرة، فقد براني الغرام، وأذهلني الوَجْد والهُيام.

ذاب جسمي من لوعة واحتراق وحنين ولوعة واشتياق
إن يوم الفراق قطع قلبي قطع الله قلب يوم الفراق

الجزء السابع

(عفيفة – أمينة – فطينة – الأمير سليم)

سليم:

لك البشرى بمكتوب الهناء من الشهم العلي أخي الوفاء
فطيبي وافرحي طربًا وأُنسًا فقد حلَّ السرور بلا مِراء

عفيفة:

حباك الله ربي كلَّ خير فقد ألبستني حلل الصفاء
فعِش واسلَم سليمَ القلب دومًا على رغم الأعادي بلا شقاء

(تفض الجواب وتقرؤه):

سلامي عليكِ أيَا عفيفةُ ما بدَا صباح وما غنَّى هَزار على غصنِ
فأنتِ حياة القلب يا ربة البها وأنتِ ضياء النفس بل قرة العين

اعلمي أيتها العفيفة الطاهرة، أن جيوش الأعداء كانت الخاسرة، وقد بلغْنا الفوز والانتصار، بعدما أذقناهم كئوس الدمار، والآن نحن في ضيافة الأمير زهير، آمنين من كل كدر وضَيْر، وعما قريب نحضر بالظفر والنصر، ونشاهد وجهَكِ البدر، فاستعدِّي لملتقانا أيتها السنية، وعليك أزكى السلام وأسنى التحية.

الأمير عطفان علي حمدان

عفيفة: الحمد لله على الفرج بعد الضيق، وأنت هل جاءك كتاب أيها الصديق؟

سليم: نعم أيتها السيدة، فقد أوصاني عليكِ وصية مؤكدة، فاكتبي له ردَّ هذا الكتاب، وأنا ذاهب لأكتب مثله لرفيع الجناب، وسأرجع إلى هنا بعد قليل؛ لأرسل الكتابين إلى سيدي الجليل.

عفيفة: ما من موجب لذهابك، فاجلس هنا وجوِّد تحرير خطابك، وأنا أكتب كتابي داخل الدار، وأحمله إليك يا ذا الوقار، فترسل بعدها الكتابين، إلى حضرة الأمير قرة العين، فأحضري له يا أمينة دواة وقرطاس.

أمينة: أمرُكِ على العين والراس (تذهب عفيفة وأمينة).

الجزء الثامن

(الأمير سليم)

سليم (لحن حجاز دوكاه – أصول مصمودي)[٣]:

الطرف من أول نظرة أشجى سليم يا أهل الغرام
والقلب أمسى في حسرة وهو كليم بادي السقام

[٣] قد: «حبيت جميل حرم وصلي».

يلزم أن أكتب الجواب بالعجل، وأستعمل بعدها جميع الحِيَل، وأفرغ جعبة دهائي؛ لأطفئ لوعة عنائي بوصال عفيفة البهية، وإلا أجعلها هدفًا لسهام المنية.

الجزء التاسع

(الأمير سليم – أمينة)

أمينة: خذ يا سيدي هذه دواة وقرطاس.
سليم: سلمتِ يا جالبة الأُنس والإيناس (تخرج أمينة).

الجزء العاشر

(سليم)

سليم (يجلس وينشد من الحجاز):

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ما هذا الوجه المشرق بالأنوار، الذي تحجُّ إلى كعبته الأبصار! فمن عيون بابلية، كم أوقعت في بلية. وجبين واضح، تحِنُّ له الجوارح، وحواجب تُذيب المُهَج، وتجذب الأرواح بقبضة البلج، وخدٍّ كالجلنار، قد جمع بين الماء والنار، وخال يختال في أحلى الحلل، يوقع الخلي في خَطب جلل، ومرشف عذاب الأرياق، رضابه لسليم الهوى نعم الدرياق، ووجهٍ هو بالإجمال نزهة المشتاق، ومرآة لوجوه العشاق، ومن عنق كالريم، در عقوده نظيم.

وجِيد جداية لا عيبَ فيه سوى منع المحبِّ من العناق

ونهود كالعاج، ملتحفة بأثمن الديباج، وبنان رطيب، على مثله يدور الخطيب، وقوام يقيم الحروب، ويثير الكروب؛ الرماح تخضع إليه، والأغصان تسجد بين يديه، وخصر نحيل، يشكو من ردفها الثقيل. وأرداف كالأحقاف، خارجة عن العادة، لكن فيها للمحبين الحسنى وزيادة.

تمشي بأرداف أبينَ قعودها بين النساء كما أبينَ قيامها

آه يا إلهي! لقد وقعتُ في الخَبال، وأورثتْني الحُب الجنون والوبال!
وهيهات لعيني أن تذوق الكرى، بعد الذي جرى.

(إنشاد حجاز دوكاه، وله فيه أن بضع الراست النوا، والأوج، والشاهناز، والمحير والبوسليك.)

سلوا فاتر الأجفان عن كبدي الحرى وعن در أجفاني سلوا العقد والنحرا
غزال إذا ما رمت عنه تصبُّرا يقول الهوى لن تستطيع معي صبرا
من السمر بالألحاظ إن مال أو رنا فلا تذْكروا من بعده البيض والسمرا
بخيلًا غدا بالوصل ما جاء سائلا له الدمع إلا رد سائله نهرا
له مقلة يُعزى لبابلَ سحرُها كأن بها هاروت قد أودع السحرا
يذكِّرني عهد النجاشي خاله وأجفانه الوسنى تذكِّرني كسرى
ويفترُّ عن ثغر تنظم درُّه فلم أدرِ عقدًا مذ تبسَّم أم ثغرا
تعشَّقته كالظبي والغصن قامة رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا

الجزء الحادي عشر

(الأمير سليم – عفيفة)

عفيفة: هل كتبتَ الكتاب، يا رفيع الجناب؟
سليم: نعم ... لا ... ما ... وَيْحي ما الجواب!
عفيفة: ما هذا الذهول؟
سليم: وما أقول ... نعم ... ولكن ...
عفيفة: ما معنى الاستدراك، وما سبب هذا الارتباك؟
سليم: نعم ... ولكن ...
عفيفة: نعم ولكن ... نعم ولكن ... هل اعتراك جنون؟
سليم: لا يا قرة العيون، ولكن ...
عفيفة: عاد إلى ولكن! حلَّ هذا المعمى، فقد أفعمتني همًّا، وأظهر ما هو في الباطن، بدون نعم ولكن.

سليم (لنفسه): لا بد من الملاطفة والملاعبة، والمباسطة والمداعبة، وألمح لها ببعض الغرام، عسى أحصل على المرام ... (لعفيفة) اعلمي يا ذات الجمال اليوسفي، أن: من، وإلى، وعن، وعلى، وفي ... فمن ابتدائية، وإلى انتهائية، وبينهما أنا، أرجو بلوغ المنى، وعن للمجاوزة عند النحاة أهل الأدب؛ أي لا أتجاوز عن هذا المكان حتى أنال الأرب، وعلى هذا يكون الأسلوب، أما هو حسن ومرغوب؟

عفيفة: نعم وخلط وخطل، وخبط وخلل، وما مرادك بإرسال الكتاب على هذه الطريقة القبيحة، الجالبة لحضرتك الإهانة والفضيحة؟

سليم: مرادي يا مولاتي حسم اللغط، ومنع الافتراء والشطط؛ لأن بعض الفرسان أخبروا سيدي بأني فارس الزمان، وبطل الطعن في الميدان، وما علموا أني خوفًا من النحل أفر من العسل، حتى صار يُضرب بخفَّتي المثل، أحسب كلَّ صيحة أنها عليَّ، وكل هيعة تغيض على يديَّ. وإذا ذُكر أمامي شجاعًا طارت نفسي شعاعًا، وطالما لجأت إلى الهرب والفرار إذا رأيت صورة الفار، أو ضغاء الأرنب طار قلبي قلقًا، أو سمعت مواء الهر طاحت روحي فرقًا، وكم أغمي عليَّ بين يدي شيخي صاحب المناقب، حينما كان يمثِّلُ لنا بضرب يضرب فهو ضارب. وكنت أتوسل ألَّا يُمثِّلَ لنا في علم البيان، برأيت أسدًا في الحمام، بل بجنيت وردة في البستان، ووسدني بزنده بدر التمام، وكنت لا أحضر قراءة أحكام الجنائز، وكتاب السير، ولا أود محادثة العجائز، ولا أعبأ بمن لام أو عذر، ومع أني تمثال الجبن، ومقر الرعب والأفن، فإني يا زينة الحسان وربة الوشاح ذو إقدام على مغازلة العيون الملاح، ولم أرَ أحسن من طعن سمر القدود، ولا أرتاح إلا من ضم النهود ولثم الخدود.

عفيفة: يظهر عليك أنك مغرم، وولهان متيَّم.

سليم: نعم نعم متيَّم، وبسهام ألحاظك مكلم، فأنعِمي لي بطيب الوصال وإلا أموت بلا محال.

عفيفة: هذا يا سليم الفعال، أمر يخالف الحلال، وقد حرَّمته الشرائع في كل كتاب، ولا خيرَ في لذَّة يعقبها أليم العذاب، وإن ما تطلبه لسهل لولا الأمانة، والمروءة التي انطبعتُ عليها والصيانة، والاسم الذي أعطيته يا سليم، فانتبه وافعل فعل الحكيم، الذي يقرأ العواقب، ويتجنب خيانة الصاحب.

سليم: دعينا يا سيدتي من هذا الكلام، واهملي ذكْر الحلال والحرام، فكم وكم رأينا من الفحول يفعل ضدَّ ما يقول. وكلامكِ من جهة الأمانة حسن، ولا تليق الخيانة بالمؤتمن، ولكن ذلك كان من قديم الزمان، أما نحن فقد أصبحنا في دهر عنود، وزمن

كنود، يُعَدُّ فيه الحِلمُ عجزًا وضعفًا، والنوك صولة وشرفًا، والسفالة نسبًا، والعفاف عجبًا، واجترام الموبقات حرِّية صائبة، والرجوع إلى الدين فلسفة كاذبة. واعلمي أيضًا يا بديعة الصفات، أن جلَّ الجناة من أصحاب المقامات، ومركزهم كتميمة، تمنع عنهم كل بلية أليمة، وضغينة سخيمة. ومن كشف عن ستارهم، وبحث عن أسرارهم، ظهر له الكامن من غدرهم، والدفين من مكرهم، وعلم أنهم يمشون الخفاء، ويدبون الضراء؛ ليقيموا بالباطل أسواقهم، وينفقوا به أعلاقهم، فهم في الحقيقة عيبة العيوب، وذنوب الذنوب، وحقيبة القبيحة، وعنوان الفضيحة، ولا غضاضة عليهم فيما يفعلون، ما دامت القوةُ فوق القانون، والآمال متعلقة بالأموال، والناس أتباع لمن غَلب، ولو كان الظالم يا ربة الأدب.

إذا كنت ذا ثروة من غنى فأنت المسود في العالم

ويساعدهم على هذا الافتراء جماعةُ المتملقين الضعفاء، الذين يصفونهم بأنهم مِلح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خرجت، وأنهم جمال الأيام، وخواص الأنام، وفرسان الكلام، وجابري عثرات الكرام، وهلمَّ جرًّا من الأوصاف المموهة الأخرى؛ ولذا تجدين الواحد منهم له كبر، ومنطق نذر يُومي بأصابع الكف، ويُنظِر بمؤخر الطرف، إن قام تكلَّف، وإن نطق تعسف، قد أسكرته خمرة العجب، واستهوته عِزَّة المال الموروث من السلب، فطغى وتجبَّر وبغى، وصار على الناس طاعنًا، ولنفسه مداهنًا، ولو أمعن المغرور النظر، ودقَّق الفكر، لوجد نفسه في ضلال، وسوء حال ووبال، حسناته أغاليط، وأفعاله تخاليط، ووعده كالوعيد، بمطل شديد، يشيب الوليد، سائله محروم، وماله مكتوم، لا يحسن إنفاقه، ولا يَحُلُّ خناقه، وإن حلَّه فللأذى والقمار، أو لمظاهر هذه الدار. منادمته ندم، تورث الهم والسقم. يحكي الحديث المعاد، ويمشي على القلوب والأكباد. وبالجملة فأعلمهم جهول، وأفضلهم مرذول. أما أنا فلستُ والعياذ بالله من هؤلاء الناس، الذين يوسوس في صدورهم الخناس. فيحبُّون المال حبًّا جمًّا، وينصبون شِراك العدوان للخلق ظلمًا، وينزفون ماء القلوب ودماء العيون، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون. بل أنا كما تعلمين فتًى ذا خلق وضي، وخلق رضي، وفضل مضي. أخلاقي سوية صحيحة، وصورتي مقبولة صبيحة. وإن ذنبي الوحيد، رغبتي في وصالك السعيد، وهو لا ضررَ فيه يا ربة الجمال، فانعمي به ودعي الهجر والمطال، واتركينا من هذا البحث العويص، الباعث على النكد والتنغيص.

عفيفة: اعلم أيها الأمين، أني ما خاطبتك باللين، وجعلتُ غضبي مكنون، (بشدة) إلا لترجع عن هواك أيها الغادر الخئون. وهل يوجد ضرر أقبح من ثلم عرض المحصنات،

يا ذا الخطيئات؟! أما استحييت مني حين خاطبتني بكلام الفسَّاق، أما هِبت بطش الأمير الذي لا يطاق؟! أما تعلم أن اسمي عفيفة، وأني طاهرة نقية شريفة؟! فإذا لم يكن لي من اسمي نصيب، فما الفائدة بحياتي أيها الكئيب؟ أما يجب عليَّ أن أحفظ للأمير أمانته، وكما لازَم حبِّي ألازم صداقته؟ وهل تُمدح خائنةٌ بين الناس، أو تُرفع لها بين شريفات النساء راس، ولو كانت يا نسل الخنا من نسل ماء السما؟ ولكن الحق على الأمير الذي ما تفقَّد الأخبار، وعلم ما في السرائر من الأسرار. فاذهب من وجهي يا خئون، قبل أن تذوقَ المنون (وتهجم عليه بخنجر).

سليم: رفقًا رفقًا يا ذات الوجه الوسيم.

الجزء الثاني عشر

(عفيفة – سليم – أمينة – فطينة)

أمينة: ما هذا يا أمير سليم؟

عفيفة: أخرجاه من هذا المكان، فلا عاش ولا كان (يخرج سليم والجاريتان).

الجزء الثالث عشر

(عفيفة – أمينة – فطينة)

عفيفة:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

(تذهب عفيفة والجاريتان.)

الجزء الرابع عشر

(يدخل سليم.)

سليم: إن لم أعمل على قتْل هذه الغبية، فلا أكون سليمًا بين البرية. نعم، لا بد من ذلك، ولو أُلقيت من مهاوي المهالك، وما دام زمام الأحكام في يدي، ولا مراجعة فيما أعيد

وأبدي، فلا بد أن أضعها في السجن، تكابد أنواع العذاب والحزن، وأكتب للأمير أنها زنت في غيابه، وأعذبها ريثما يأتني ردُّ جوابه. نعم، لا أحُول عن هذا المقصود، وها أنا ذاهبٌ لإحضار الجنود (يخرج).

الجزء الخامس عشر

(عفيفة)

عفيفة: الخيانة والغدر من صغر القَدر، وأقبح ما يكون من الأمين، الذي يؤتمن على العِرض والدِّين. وأربعة من علامات اللؤم ودلائل الخيانة والشؤم: إفشاء السر، وتعمد الغدر، وإثارة الفتن، وخيانة المؤتمن. وفي المرء ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات؛ أما المنجيات فالعدل في الرضا والغضب، وخشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر. وأما المهلكات فشحٌّ مطاع، وهوًى متَّبَع، وإعجاب المرء بنفسه والعياذ بالله. ومولاي الأمير نظرًا لسلامة قلبه، وطهارة ضميره ولُبِّه، ظن أن كل الناس مثله في الصفات، ومنزَّهين عن ارتكاب المحرمات. وائتمن الهِرَّ على اللحم، والكلب على الشحم، وسلَّم سليمًا زمام الأحكام، وألبسه رداء عصمة الملائكة الكرام، ولكن كان الواجب، والرأي الأسدُّ الصائب، ألَّا يضعَه في هذه المكانة، قبل أن يجرِّبَه إن كان يصلح للأمانة، ولكن سبق السيف العذل، والعجلة موطن الزلل. وعلى العاقل الأديب، ألَّا يثقَ بإنسان قبل التجريب.

متى تحمد صديق السوء فاعلم بأنك بعد محمدة تذمُّه
كطفل راقه ترقيشُ صِلٍّ فلما مسَّه أَرْداه سمُّه

الجزء السادس عشر

(عفيفة – سليم – الجند)

سليم: اقبضوا على هذه الباغية.

عفيفة: ما هذا يا ابن الطاغية؟!

سليم: اسكتي يا خائنة العهود، اقبضوا عليها أيها الجنود، وضعوها في أضيق الحبس، إلى أن تسكن الرَّمْس (يمسكها الجند).

عفيفة: سترى يا جعبة النحس، مَن منَّا يسكن الرَّمْس.

(تنزل الستار.)

الفصل الثالث

الجزء الأول

(سجن وبه عفيفة وولدها الصغير والسجَّانان.)

عفيفة:

أصاب حُشاشتِي سهمُ الأعادي فأبدل نوم عيني بالسُّهاد
وأورثني لِقا الأهوال خطبًا خطيب البين قام به ينادي
وروَّعني بأنواع الرزايا وألبسني النَّوى ثوبَ الحِداد
وعاد ليَ المسالم فيه ضد يرى في قِتلتي فضل الجهاد
فعاملني بما لا ترضيه فتاة لا تميل إلى الفساد
أَلَا من مُبْلِغٍ مولاي أني رماني الغدر في سجن السواد
ومن جور الذي ولاه حفظًا يرق لشقوتي قلب الجماد
سليم سرَّني بالقول لكن بلا فعلٍ ويفتِك فتكَ عاد
سأصبر للخطوب إذا ادلهمَّت مسلمة إلى مولى العباد
وعند الله تحتكم البرايا إذا عادوا له يوم المعاد

أوَّاه، وا عذاباه! وا عِظَم كربة كابدتُها في هذا الحبس، على هذا الطفل الذي ولدتُه في طالع النحس! وأنا وحيدة حزينة، لا أمينة ولا فطينة، ولا والدة شفيقة، ولا شقيقة رفيقة، ولا أب ولا قرين، ولا صادق ولا أمين، وسادتي من تراب، وغطائي ضباب العذاب،

وصباحي ظلام، ونهاري أسود من القتام، وطعامي زقوم البلاء، وشرابي أجاج دمع البكاء، ووضعت هذا الطفل على الأرض، وكله هيِّن مع سلامة العرض.

بحسن الظن يا ربي سأُسقَى بفضلك شهدَ عاقبة الصيانة
ويسقي الخائن العاتي سليمًا كئوس سموم غائلة الخيانة

(يبكي الطفل.)

صبرًا يا يتيم الأحياء، ومولود البلاء والشقاء، فلا بد من الفرج، بعد الذل والحرج. أواه وا حزناه! أنا رفضت طلب الأمير سليم، فعاملني بالعذاب الأليم، ولكن ما ذنب هذا الطفل الصغير، الذي ألهبته حرارة السعير؟ أوَّاه وا كرباه عليكَ يا ولدي، وحشاشة كبدي، أجئتَ لتشاركني في النحوس، أم تسكن معي مظلمات الحبوس؟ فأين عين والدِكَ لتراك، لتخلِّصك من بلاك؟ آه من الدهر وبلاه، وعذابه وشقاه، لا تصفو فيه المشارب، حتى تكدرَها الشوائب، ومن عرف الزمان، لم يستشعر منه الأمان، فموهوبه مسلوب وإن أرخى على مهل، وممنوحه محروب وإن أُخِّر إلى أجل، وإنما نحن في الدنيا على أوفاز ومجاز، وحذار وانتظار، فالحازم من لا يفرح بمواهبها، ولم يتضاءل لنوائبها.

أقول والقلب مكدود بأحزان والصبر أبعد مما كان أجفاني
حتى متى أنا يُدمي العض أنملتي غيظًا على زمن قد رام أزماني
في كل يوم أراني من نوائبه كأنني أصبعي والدهر أسناني

من لي بالممات؛ لأتخلَّص من الآفات، وأستريحَ من العذاب الشديد الذي لا تقوى عليه جبال من حديد.

الجزء الثاني

(عفيفة – السجانان – رسول)

الرسول: خذي يا عفيفة هذا الكتاب، وعجِّلي برد الجواب.
عفيفة: أهو من الأمير سليم؟
الرسول: نعم، من الأمير سليم. فاقرئيه وأعطيني الجواب، سلبًا كان أم إيجاب.

(تقرأ الجواب):

اعلمي يا عفيفة العنيدة، أنكِ لا تقدرين أن تعيشي سعيدة، إلا إذا بلغتني الآمال، وأبدلتِ عذاب الجفا بقرب الوصال، وقد أرسلتُ لكِ هذا الكتاب بشيرًا، ومن عواقب الإعراض والهجران نذيرًا. فإما وصْلٌ وفعل، أو امتناع وقتل. ولكِ يا عفيفة الخيار، ولا عذر بعد إنذار.

الإمضاء: المغرم الكليم الأمير سليم

عفيفة: قد بشَّر وأنذر، وخيَّر وحذَّر، فارجع إليه يا بريد، وقُل له يفعل ما يريد، وبلِّغ ذلك المهان، الذي نقض العهد وخان، أن لي ربًّا يقيني، ومن نوائب غدره يحميني، ودون وصالي قطعُ الأعناق، وكل داهية لا تطاق، ومقصدي وشرفي أيها الأثيم، أن أُقتلَ وأُقبرَ وعِرضي سليم، ولا تحوز المرأة في الدنيا مكانة عليا، إلا إذا بذلت ماء الحياة دون ماء المحيا، والطاهرة من النساء، تموت ولا يموت اسمُها في الأرض ولا في السماء، وتنالُ في دنياها كلَّ حظٍّ سعيد، وتأمن في آخرتها من عذاب الوعيد. وأنا عفيفة، النقية الشريفة، فاذهب وقل له: أيها الكئيب، بقطيعة جهيزة قول كل خطيب. فدعه يقتل أو يحرق، أو يصلب أويشنق، فكلها مقصدي وآمالي، وفداء لعرضي الغالي (يذهب البريد).

الجزء الثالث

(عفيفة – سجانان)

أسألك يا قاضم الجبارين، ومخزي الغدَّارين، ومنكث كل خائن، ومبيد كل مائن، وقاهر كل أثيم، ومدمِّر كل ظالم لئيم، أن تكفيَني شرَّ سليمًا وغدره، وتردَّ كيدَه في نحره، إنك سميع الدعاء، والواقي من كل بلاء.

السجان (١): لا ريبَ أن الأمير سليمًا قد ظلم مولاتنا عفيفة، وكلَّفها ما لا تفعله كلُّ طاهرة شريفة، وأرى أن هذا الطغيان، سيُلبسه رداء الذلِّ والهوان.

السجان (٢): بل رداء القتل، إذا ما رجع عن الجهل؛ لأن مولانا الأمير سيرجع عن قريب، ويذيقه جزاء ما فعل أنواع التعذيب، هذا إذا ما قتله وعجَّل من الدنيا مرتحله. فسِرْ لنحذِّرَه قبل ما يندم، فعساه يتأنَّى في أمره ليسلم، وإذا رفض النصيحة، وبقي على نيَّته القبيحة، يكون قد ألقى نفسه في خطر، يجعله مدى الأيام تاريخًا يُذكر في السير.

سجان (١): هذا هو عين الصواب، والأمر الذي لا يُعاب، وسنقوم بالواجب علينا، لنخلُصَ من شرِّ جريرة ترجع إلينا، فالبدار أيها الرفيق، وعلى الله التوفيق (يخرجان).

الجزء الرابع

(عفيفة – أمينة – فطينة)

أمينة: تبًّا لهذا الزمان الغدَّار، كيف يظفَرُ الفجَّار بالأبرار، فقد كتب سليم الأثيم إلى أميرنا الهمام، أن مولاتنا عفيفة زنت وجاءها ولدٌ في الحرام، وجاء الجواب بقتلها وقتلِ الغلام، جزاء ما ارتكبته من الذنوب والآثام، وهي والله بريئة عفيفة، نقية طاهرة شريفة، صوَّامة، ذاكرة قوَّامة، وكلُّ جرمها العظيم، مخالفة الأمير سليم، الذي تعمَّد فَعلته الشنيعة، وخالف كلَّ شريعة، وما هاب بطش الغيور، الذي يعلم بخفايا الصدور، والعجب كل العجب، من أميرنا المنتخب، كيف سمح بقتلها وولده الصغير، بمجرد بهتان سليم الخَتير، مع أنه هو المخاطب، والمسئول والمُطالَب، ولا لومَ على الواشي الكمين، بل على الذي أنزل خبرَه بمنزلة اليقين، والمشهور عند العقلاء، أن الخبر يحتمل الصدق والافتراء، وخصوصًا إذا كان من أثيم، نظير سليم.

عفيفة: أسمعُكِ يا أمينة تذكرين اسمَ سليم.

أمينة: آه يا مولاتي من ذلك اللئيم (سرًّا) وكيف أخبرها بالقصة، التي تجرعها ألف غُصَّة؟ أسفًا على قوامك الرطيب!

فطينة: حزنًا على جمالك العجيب.

عفيفة: ما لي أراكما في أسَف وندْب، هل يوجد شيء يوجب الكرب؟

أمينة: وأيُّ كرب عظيم، وبلاء جسيم، ومصيبة فادحة، وكارثة جارحة!

عفيفة: وما هو يا أمينة؟

أمينة: أخبريها يا فطينة.

فطينة: أأُخبرها بالهلاك؟

أمينة: لا كان سليم الأفاك. كيف بلغ الإفك المراد، وألبسنا ثوب الأسف والحداد.

عفيفة: أخبِراني أخبِراني، لقد ذاب جَناني.

أمينة: اعلمي يا مولاتي المظلومة، أن سليمًا بتدبيراته المشئومة، قد تحصَّل على أمر من سيدنا الأمير، بقتلِك وقتل ولدِكِ الصغير، وادَّعَى أنَّكِ ارتكبتِ الآثام، وولدك جاء من الحرام، وعن قريب يُرسل سيَّافَيْن؛ ليجرعاك وولدَكِ علقم البَيْن.

عفيفة: ومن أخبركِ يا أمينة؟
أمينة: سليم أخبرني وأخبر فطينة وأرسلنا إليك بالخبر؛ لتكوني على حذر.
عفيفة: أمن هذا الأمر اعتراكما الوجل، وقطعتما من نجاتي الأمل؟! أما تعلمانِ أن الله سميع بصير، وعلى إنقاذي قدير، أإله غير الله؟
أ – ف: لا والله، لا والله.
عفيفة: أيرحم العبد سواه؟
أ – ف: لا والله، لا والله.
عفيفة: من يفرِّجُ عنا الكروب؟
أ – ف: مذهِب حُزْنِ يعقوب.
عفيفة: من يُجير الكسير؟
أ – ف: ربُّنا السميع البصير.
عفيفة: من يكشف عنا الخطوب؟
أ – ف: كاشفُ ضُرِّ أيوب.
عفيفة: من يخلِّصُني من الأكدار؟
أ – ف: منجي إبراهيم من النار.
عفيفة: من ينجِّيني من الحرق؟
أ – ف: منجي موسى من الغرق.
عفيفة: من يُكفيني العذاب المهين؟
أ – ف: منجي إسماعيل من السِّكِّين.
عفيفة: أَمَا هو الذي يستجيب الدعاء؟
أ – ف: نعم، وهو المنجي من البلاء.
عفيفة: إذن فارفعوا إليه أكُفَّ الضراعة، وادعوا معي بمهجة ملتاعة.

(مقام حسيني عشيران – أصول – سماعي ثقيل ١٠ من ٨.)

يـا رب يـا مـنـان يـا واهـب الإحـسـان
أنـقـذنـا مـمـا كـان مـن جـاحـد قـد خـان
بـالـجـور والـبـهـتـان والزور والعدوان رمانا

دور

قـلـبـي غـدا ولـهـان مـن لـوعـة الأشـجـان
والـمـائـن الـخـوان عـامَـلَـنـا بـالـعـدوان
فـاصـنـع لـنـا إحـسـان يا عدل يا سلطان — إلهي

(يُغشَى عليهن.)

الجزء الخامس

(السياف – السجانان)

السياف (للسجانَين): أنتما عليكما الإذعان، لما يأمر به الأمير سليم وكيل الديوان، وما لكما حقٌّ بالمعارضة، والمجادلة والمناقصة، فلو لم يكن رأَى من عفيفة أقبح فعل، لما سبَّب لها القتل، فالْزَما حدَّ الأدب، ولا تجعلا لطردكما من سبب.

السجَّان (١): قد أخطأنا أيها الهمام، والعفو من شِيَم الكرام، وبعد الآن لا نتداخل فيما لا يعنينا؛ لئلا نسمعَ ما لا يرضينا ... هه. انظر أمينة وفطينة، وعفيفة الحزينة.

السيَّاف: انظر أهو موت أم إغماء؟

سجَّان: لا يا سيدي، بل هو إغماء، فيلزم أن نرشهن بالماء.

سيَّاف: عَجِّل كُفيتَ البلاء. (يذهب السجَّان) هذا جزاء من تخون بَعلَها في غيابه، ولم تخشَ رجوع المشرفي إلى قرابه

(يُحضر السجَّان الماء ويرشهن به فينتبهْنَ.)

أمينة: أوَّاه قد بلغت أرواحنا التراق.

فطينة: قد آن وقتُ الفِراق.

سياف: أخرجوا عفيفة البغية.

عفيفة: أغثْني يا ربَّ البرية!

سيَّاف: أخرجوها بالعجل.

سجانان: أمرُك أيها الأجلُّ (يُخرجانِها).

سيَّاف: اعلمي أيتها الأميرة، أنَّكِ لبسْتِ لباسَ الجريرة، وستجازين بما في هذا الكتاب، فاقرأيه وتشجَّعي على تحمُّلِ العقاب.

عفيفة: الحكم للواحد الغيور، الذي يعلم بخفايا الصدور. هات الكتاب لأقرأه، والفرج على الله (صورة الجواب).

> اعلم يا أمير سليم، أن كتابَكَ أوقعني في الخطر العظيم، ولعلمي بما صدر عنها من الفعل المشين، قد كان عندي في درجة اليقين، والذي يجب عليك، حين وصول كتابي إليك، أن تقتل عفيفة ذات الخنا، وولدها ثمرة البغي والزنا، بدون مراجعة أحد من الأنام، أو شفاعة بها وعليك السلام.
>
> الأمير عطفان علي حمدان

سيَّاف: أقرأتيه؟

عفيفة: نعم، قرأته.

سياف: والإمضا؟

عفيفة: عرفتُها.

سيَّاف: أهو خطُّ الأمير وإمضاه؟

عفيفة: نعم، خطُّه بلا اشتباه. قد سعَى بقتلي سليم الغدار، وساعده الأمير بمجرد الأخبار. أمَا كان يجب عليه أن يتمهَّلَ، ويتأنَّى في أمره ولا يستعجل؟ أما عَلِم أن عاقبة العجلة الندامة، وأنه مسئول عن النفس يوم القيامة؟ يوم يُؤخذ بناصية الظالم دون سائر الخلق، وأنادي وأقول: هذا ظالمي يا حق، أينفع حينئذ عذر؟

أ – ف: لا، وعالم السر والجهر.

عفيفة: أينفع وقتئذٍ جار؟

أ – ف: لا، ومَن يعلم الأسرار.

عفيفة: أيُنجي مالٌ أو بنون؟

أ – ف: لا، ومَن يعلم ما كان وما يكون.

عفيفة: ما حُجَّةُ الظالم يوم الدين، إذا وقف أمام رب العالمين؟ يوم تشخص فيه الأبصار، لحُكم الواحد القهار، يوم يفرُّ الإنسان من أبيه، وآله وذويه، وأنا أتأسَّف على الأمير وعلائه، أن أكون يوم القيامة من خصمائه، مع أنِّي أُعَدُّ في أعتابه من الخدم، وهو صاحب المهابة والعظم، كلُّ هذا بفعل الإغراء الكبير، آمنت بالله القدير، اعلمي يا أمينة، وأنت يا فطينة، بأنِّي عن قريب ستُكوَّر شمسي، وأسكن بعدها رَمْسي، جزاء طهارتي وعِفَّتي وصيانتي، ولا لومَ على الظالم فيما ظلم، بل اللوم على الحاكم فيما حَكَم، ولستُ بأول مظلومة غالها الظلوم، وسنلتقي في يوم تجتمع فيه الخصوم. وأنا ملطَّخة بدم

البراءة، وهو مصفَّد بسلاسل الجراءة، ويُنادَى على رءوس الأشهاد، هذا يوم العدل في العباد، ويُجازَى كلُّ امرئ بما قدمت يداه، ويكون الأمر بيد الله.

سيَّاف: نعم، وفي هذه الدنيا الفانية، القتل جزاء لكل فاسقة زانية. فسلِّمي نفسَكِ أيتها البغية، وتهيَّئي لشُرب كأس المنية.

عفيفة: أبَلَغ من قَدرك يا ابن الطاغية، أن تقول على مولاتِكَ زانية؟ فاغرُب عن وجهي أيها اللئيم، فلا كنتَ ولا كان الأمير سليم (يذهب).

الجزء السادس

(عفيفة – أمينة – فطينة)

عفيفة: إلى جهنم وبئس القرار، خُسرًا لكم يا أشرار، وسُحقًا لأميركم ذي الخيانة، الذي نقض العهد وخان الأمانة. ائتيني يا أمينة بدواة وقرطاس.

أمينة: أمرُكِ على العين والرأس.

عفيفة: سلامة ضمير مولانا الأمير، الذي وكَّل في أحكامه هذا الشرير، ولا تثريبَ عليه فيما فعل، ولا حيلةَ للمحتال إذا أدركه الأجل.

وإذا المنية أنشبت أظفارَها ألفيت كل تميمة لا تنفع

لذا أسلم أمري في جميع الأحوال والشئون، إلى مَن أمره بين الكاف والنون، وقضاء الله لا تدفعه حيلة محتال؛ إذ الأمر بيد ذي الجلال.

أمينة: خذي يا مولاتي هذه دواة وقرطاس.

عفيفة: سَلِمْتِ من كَيد كلِّ خنَّاس (تكتب الجواب وفي أثناء ذلك تتحدَّث سرًّا أمينة وفطينة) خذي يا أمينة هذا مكتوب الأمير سليم، ومكتوبي سلِّميهما معًا لمولاي الفخيم، الذي حكَّم سليم الشرير، بقتل زوجته وولده الصغير، بدون مراجعة فِكر، ولا تأمُّلٍ في الأمر، وهذا قضاء الله فله الشكر والحمد، من قبلُ ومن بعدُ.

الجزء السابع

(سليم – السيَّاف – الجند)

سليم: بأية جراءة يا ذات العيب الكبير، خالفْتِ أمري وأمرَ مولاي الأمير؟ أظننتِ بعدَ الفسق والزنا، تخلُصين من القتل والعنا؟!

عفيفة: اسكت يا خوان، ومعدن الغدر والعدوان، فأنا أطوع لمولاي الأمير من يديه، وجميع أموري منه وإليه، وكلُّ ما فيه رضاه أقبله وأرضاه، وأما أمرك يا جحود، فهو مرفوض ومردود، فمِلْ إلى العدل والإنصاف، وارجع عن الجَور والإسراف، وتخلَّق بأخلاق الأمين، الذي لا يخون ولا يَمين، واعلم يا أمير سليم، أن الظلم مرتعه وخيم، يُزيل النِّعَم، ويورثُ النقم، ويُصرع الرجال، ويُقصِّر الآجال، وأنت أغراك هوى الضلال، فراقِب مولاك، الذي حكَّمك وولَّاك، فلا تدومُ أمارة، ولا تبقى نضارة، ودام حالٌ مُحال، وكل شيء مصيره للزوال، وستُعرَضُ في غد أيها الأمير، أنت وعملك على اللطيف الخبير، فأصلح لتسلم، وإلا فوالله تندم، وصُن عِرضَكَ من العار، ونفسَكَ في الآخرة من النار.

سليم: صه يا زانية، اسحبوها إلى البادية، واقتلوها هي وولدها في شعب الهلكات، ودعوها تنطبق عليها الأرض والسماوات.

عفيفة: أغثنا يا غيور.

سليم: آه يا ذات الفجور.

عفيفة: الفجور من مثلك يا غدار، وسينتقم منك الواحد القهار.

(مقام حسيني عشيران – أصول دارج ٦ من ٤.)

محبوبي قصد نكدي قوَّى بالبكا رمدي
صِحْتُ من لهيب كبدي أحرق الضنى جسدي

خانة

مسَّني السهر بِتُّ في فكر زاد بي الضجر حين غاب القمر
سَترُك الجميل سندي وعليك معتمدي

(تنزل الستار.)

الفصل الرابع

الجزء الأول

(الأمير سليم – نُدمان – مجلس شراب)

نديم (١) (مقام حجاز نكريز – أصول ورشان)[١]:

عاذلي في الأغيد الأنس لو رآه اليوم قد عذرا

خانة

وردة بالخد أم خجل ريقة بالثغر أم عسل

سليم:

اشرب ثلاثًا يا نديمي واسقني واطرب لنقطة عجمة وبيان
كأس إذا صافحتها أثْرت يدي من فضة ملئت من المرجان
حمراء رصعها الحباب بجوهر كالزهر في مرج من العقيان
والله لو عقل المجوس لكأسها جعلوه بيت عبادة النيران

في محبتكم.

الجميع: هنيئًا! (يشربون.)

---

[١] تلحين «كامل أفندي الخلعي».

(مقام حجاز دوكاه – أصول دوخت ٧ من ٤.)

امـلأْ لـي يـا دري مـن صـافـي الأدنـان
وأَجِـلْـهـا يـا بـدري يـا حـور الـحـسـان

خانة

املأْ لي يا صاح راجي وأَجِـلْ لـيَ الأقـداح
مـن مـدامـة تـبـري فـؤادي الـظـمـآن

(مقام أوج – أصول نوخت ٧ من ٤.)

يـا نـسـمـات الـصـبـا روحي أرض الحجاز
غنِّي في لحن الصبا أو نغيمات الحجاز

سلسلة

وانشدي صبا صبا وانعشي أهل المجاز

(مقام حجاز دوكاه – أصول نوخت ٧ من ٤.)

هل يرى في الناس مثلي عاشق مضنى متيم ومغرم
رق حـتـى صـار وَهْـمـا حار فيه من توهَّم فسلم

سليم: يا ليلي يا ليلي يا ليلي يا ليلي يا ليل.

وحق يا بدر من لك مهجتي مَلَّكْ لا تستمع من يقول لك عاشقك مَلَّك
جعلت جفني محلك والفؤاد مال لك بالله واصل ولا تسمع كلام واصل
والعقل يا منيتي والروح والمال لك

الجميع: يا سلام كمان آه.
سليم: في محبتكم.
الجميع: هنيًّا!
نديم (٢) (يقدم للأول كأسًا فلا يقبله فيتغاضى عنه ويقول): إن مجلسنا أيها الأمير، والقمر المنير، قد أخذت فيه الأوتار تتجاوب، والأقداح تتناوب، ونحن بين بدور،

وكاسات تدور، ومسموع ومشموم، ومشروب ومطعوم، وعود يحرك ويحرق، وقدح يروب ويروق، وشاد يغرد، وشارب يعربد، وخد ورد ينشق، وورد خد ينشق، إلى غير ذلك من رَوح وريحان، ومحاسن وإحسان، وإنما يا سيدي العيش، مع الخفة والطيش، فانتهز فرص اللذات، قبل فوات الأوقات.

صل الراح بالراحات وافدح مسرة بأقداحها واعكف على لذة الشرب
ولا تخشى من ذنب فأوراق كرمها أكفٌّ غدت تستغفر الله للذنب

في محبتكم.

الجميع: هنيًّا!

نديم (٣): اشرب يا سليم الجنان، وارتشف بنت الدنان، من كئوس تَسُرُّ بحسنها النفوس، ثغورها باسمة، ومناهلها لمادة الأسى حاسمة، تحمد عند الصبوح والغبوق، وتشرح الصدور في حالتَي الغروب والشروق.

وكأس ترينا آية الصبح في الدجى فأولها شمس وآخرها بدر
مقطبة إن لم يزرها مزاجها فإن زارها جاء التَّبسُّم والبِشر
فيا عجبًا للدهر لم يخل مهجة من الحب حتى الماء يعشقه الخمر

سليم: لله دركم من ندمان! لا يسمح بمثلهم الزمان، حاشيتهم أرقُّ من النسيم، ومِزاج كاساتهم من تسنيم، إن نظموا أودعوا أصداف المسامع درًّا، أو نثروا نفثوا في عقد العقول سحرًا.

تنازعوا درة الصهباء بينهم وأوجبوا لرضيع الكأس ما يجب
لا يحفظون على النشوان ذلته ولا يريبك من أخلاقهم ريب

فقد والله طيبتم القلوب والأسماع، وأحييتم موات الخواطر والطباع، وأطعمتم الآذان سرورًا، وقدَحْتُم في القلوب نورًا، سيما وقد ارتاح الجنان، بقتل عفيفة من الأكدار والأحزان، وفي أملي أن يُقتلَ ابنُ اللئام، في ساحة الطعن والصدام، وأملك بعد موته الأمر والنهي، وأحكم على كل من في الحي، فما تريان أيها النديمان الصادقان؟

نديم (١): إني أرى ما أنت فيه أيها الأمير، هو محض خطأ ومُسخطٌ للعليم الخبير، وأما رأيي في العشق والغرام، أيها السيد الهمام، فهو ملك قاهر، وحاكم جائر، هزله جد وراحته تعب، وأوله لغب وآخره عطب، يعتري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة، ويكسف من الآراء شموسها البازغة، يستعبد الأحرار، ويستأثر ذوي الأقدار، ويصغر الأبدان، ويوقع في الذل والهوان، ويورث الأسف والحرق، ويجلب الوسواس والأرَق، ويجدِّدُ ملابس الوَجْد والألم، ويمنع عن الاشتغال بالعلوم والحكم، ويعطِّل عن المصالح، ويجرح بمُديته الجوارح، ومن جنده الغرام والكلف، ومن رفده الهيام والشغف، يعوق الطالب عن الاستفادة، ويُشغل الإنسان عما خلق له من العبادة، يُفضي إلى الجنون، ويُدني أهل المنى من المَنون.

وما عجب موت المحبين في الهوى ولكن بقاء العاشقين عجيب

ولولاه لما قتلتَ عفيفة ظلمًا، وارتكبتَ شططًا وإثمًا، وما غررت بنيل الإمارة، وأحببت الحكم المطلق والإدارة، مع أن أميرنا على قيد الحياة، ومحبوبٌ بما له من رفعة القدر والجاه، فعليك أن تتدارك الأمر، قبل ما يحيق بك الخسر.

سليم: وأنت ما تقول أيها النديم؟

نديم (٢): أنا أقول أيها الفخيم: إن ما فعلتَه مقدَّر ومكتوب في لوح علام الغيوب.

إذا نزل المقدار لم يبقَ للفتى نهوض ولا للمخدرات إباء

فدع ما فاه به هذا العُتُلُّ الزَّنيم، فقد لا يُحسن الحديث في مجلس النديم.

ما للغناء مع الحديث نظام إن الكلام على السماع حرام

وداوِ الأوهام بشرب راح، ألطف من نسيم الصَّبا، وأرَقّ من دموع العشاق وعهد الصِّبَى. النور إزارها، ومعدن الذهب قرارها، وقد قيل: إذا تراكمت الغموم، ففي المدام بماء الغمام شفاء الهموم، فهي في الحقيقة كيمياء الفرح، وصابون الترح.

وليست الكيمياء في غيرها وجدت وكل ما قيل في أوصافها كذب
قيراط خمر على قنطار من ترح يعود في الحال أفراحًا وينقلب

وعول على اغتنام فرص اللذات، حيث دعتك إلى المدام قبل الفوات، واجعل كلام هذا النصوح في زوايا الإهمال، وبعد هذا الوقت لكل مقام مقال، ولنرجع أمير الأمراء إلى ما كنا فيه من الأنس والصفاء.

نديم (١): لا بأس بما قاله فأوعه سمعَك، فإنه يرى غير ما رأيتُ ويقصد نفعَك. وها أنا قد خرجتُ من عهد الأمير بالمعروف بما قدَّمتُه لديك، ودخلتُ فيه من أبواب النصائح بين يديك، وليس لي غاية في ذلك ولا فائدة، ولا أمل في صلة تكون عليَّ عائدة، وألتمس منك الإذن بالانصراف الآن، والشأن لمن كل يوم هو في شان

(يخرج النديم الأول.)

الجزء الثاني

سليم: صدقتَ أيها النديم، الراح تشفي السقيم، وتسمع الأصمَّ، وتنطق الأبكم، وتؤلِّفُ شمل البعيدين، وتزرع المحبة بين المختلفين، وتشجِّع الجبان، وتزيل تعقيد اللسان، فأنشدْنا بمفردك أيها النديم، شيئًا يداوي قلبي الكليم.

نديم (٢):

ولما رآني العاذلون متيَّمًا أهيم بمن أهوى وعقلي ذاهب
رثوا لي وقالوا كنت بالأمس عاقلًا أصابتك عين قلت عين وحاجب

الجميع (مقام حجاز همايوني – أصول دارج ٦ من ٤)[٢]:

يا راعي الظبا في حيك غزال
خلته في قبا مذ رنا وصال

دور

قال لي خذ جبا واشربها حلال
ناديت مرحبًا يا بدر الكمال

خانة

قل لي يا مصون ما هذا الدلال يا حلو المجون؟
ما آن الوصال
زادت بي شجون سلواني محال وحالي أبى

[٢] تلحين «كامل أفندي الخلعي».

عن غيرك ومال
إيه أمان أمان إيه أمان أمان

دور

كم هذا القديد يقتنص أسود
والخال في الخديد حارسه يسود

دور

ينثني رويد راخي البنود
يمشي معجبًا في ثوب الجمال

خانة

مقصدي أراك يا بدر البدور يا عود الأراك
محلي تزور
لا أعشق سواك بسك لا تجور يا غصن الربا
يا مزري العوال
إيه أمان أمان إيه أمان أمان

سليم: قد ضاق صدري من هذا الأمر، واشتعل في قلبي وَقْد الجمر، وما أبداه هذا النصوح البارد، قد أقصى آمالي عن بلوغ المقاصد، ولم أدرِ نتيجة هذا الشان، تعود عليَّ ربحًا أو خسران.

نديم (٢): هوِّن عليك أيها الأمير، فالأمر سهل ويسير، فإنك عند الأمير عليٍّ مقبول، وكلُّ كلامٍ غير كلامك يُعَدُّ من الفضول، فلا تَشغلْ فكرَك بتباريح الفكر، وما كان من أمر عفيفة فهو قضاء وقدر. فهيَّا بنا أيها النُّدمان، لنطرب الأمير بالسماع وبديع الألحان.

فصل سماع

(مقام حجاز دوكاه – أصول مربع ١٣ من ٤.)

غصن بان قد تبدَّى بالمحاسن والجمال
يا له ظبي مفدَّى قد سبى بدر الكمال

دور

وحوى في الثغر شهدا ذا الرشا عذب المقال
وأسر بالجفن أسدا منه بالسحر الحلال

(مقام حجاز دوكاه – أصول نوخت ٧ من ٤.)

يا غزالًا قد أغار الظبى تكحيل العيون
وغصينا قد أغار الروض ميلات الغصون

خانة

بالذي ولَّاك حسنًا رق وارحم صب مغرم بالجوى حيران

قفلة

أوف وعدي وتفضَّل وأزل عني شجوني
ما الصبر إلا جدلًا والحب لا يبرح ولا
خلي من لي خل ذلي بين الملا

(مقام حجاز دوكاه – أصول مصمودي ٨ من ٤.)

هجرني فدعني من البعاد انتحب وجدي وخلي دموع العين تجري على خدي

خانة

دموعي جرت في الخدود وحبي بدا بالصدود
ترى يا زماني تعود وأنظر حبيبي عندي

دور

ألا يا صَبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وَجْدًا على وجد

خانة

حبيبي رشيق القوام وريقه شقيق المدام
أتى في دياجي الظلام وجاد لي بحل البند

(مقام حجاز دوكاه – أصول دور هندي ٧ من ٨.)

عفيفة

هات يا باهي السنا كاس الطلا بين نُدمان
وأَدِرْ راح الـهـنـا بدري علا طب بألحان

خانة

خمرة تنفي العنا بها انجلى غين أحزاني

قفلة

كم بها نال المنى بعد القلا مغرم عاني

(مقام حجاز دوكاه – أصول أفصاق ٩ من ٨.)[٣]

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

خانة

لم يكن وصلك إلا حلمًا في الكرى أو خلسة المختلس

دور

إذ روى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس

خانة

فكساه الحسن ثوبًا معلمًا يزدهي منه بأبهى مجلس

الجزء الثالث

البشير: قد بزغت يا مولاي طوالع الأمير المنصور، وعن قريب تُشرِقُ شمسُه في سماء السرور.

سليم: اغرب عني أيها الحقير، فلا كنتَ ولا كان الأمير، الذي كدر أوقات الطرب (يخرج البشير).

النُّدمان: نعم، وقد جُبِرنا على الهرب (يخرجون).

[٣] تلحين «كامل أفندي الخلعي».

الجزء الرابع

سليم: لا تخافوا ... لا ترهبوا ... اذهبوا إلى فلا ولا ... ومن يكون الأمير اللكاع، حتى أخشى منه أو أرتاع؟ فعليَّ أن ألازم كأسي، جالبة أنسي وإيناسي، وإذا حضر الأمير، أقابله بالشتم والتحقير، ومهما شاء يفعل، وأنا عن الراح لا أتحول (يملأ الكاس ويشرب).

إذا لم أجد للراح خلًّا موافقًا فلي بيَ أنس كامل حين أشرب
لساني يغنيني وفكري منادمي وكفي يسقيني وسمعي يطرب

(تدق طبول النصر وينشد الجيش من الخارج.)

(شاهناز – أصول دارج ٦ من ٤.)

بشرى لنا بشرى لنا فزنا على الأعدا
ونلنا المنى والمرام
جاد الهنا جاد الهنا واشتفت النفس
بقهر اللئام الطغام

سليم:

آه يا ترى آه يا ترى أظفر بالوصل ولو في الكرى
ليل يا ليل

الجزء الخامس

(الأمير علي – الجيش – سليم (سكران يعربد في دار الأمير))

الجيش:

رب الورى رب الورى ارضَ على المولى علي النهى والمقام

علي: ما هذا يا حليف الخمر؟! (مشيرًا إلى سليم.)
سليم: هذا حظ ونشوة وسكر.

علي: أفي بيتي تفعل هذه الفعال؟
سليم: «أمال» يا «واد» يا راعي الجمال.
علي: اقبضوا على هذا الفاسق الخئون، واجعلوه في السجن ليذوق المنون، واذهبوا أنتم إلى منازلكم، واستأنسوا بأهلكم وأقاربكم (يمسكونه).
الجند:

شهم علا شهم علا أوج علـى الـمـجـد بطعن القنا والحسام
سبع الفلا سبع الفلا حزْتَ رضـا الـشـعـب فطب بالصفا والسلام

(يخرجون بسليم.)

الجزء السادس

(الأمير علي – أمينة – فطينة)

علي: أمينة.
أمينة: نعم.
علي: فطينة.
فطينة: نعم.
علي: أخبراني بحقيقة الحال؛ ليزول عني الإشكال، هل عفيفة زنت كما قال سليم؟
أمينة: لا، لا، حاشا يا مولاي الفخيم. عفيفة نقية، وطاهرة تقية، صوامة، وذاكرة قوامة، وقد ماتت مظلومة، بدعوى سليم المشئومة. وأنت يا مولانا تساهلت بقتل عفيفة، وهي والله بريئة شريفة، وهذا كتاب سليم الذي أرسله لها في الحبس، وهذا كتابها لك فاقرأهما ليزول عنك اللبس.

(يقرأ كتاب عفيفة):

باسم رب الملكوت، الحي الذي لا يموت، مقدر الخير والشر، مسبب النفع والضر، الذي لا يغرب عن علمه في جميع الأمور، ذرة من خفايا القلوب والصدور، من المذبوحة بمدية البهتان، المقتولة بالظلم والعدوان. اعلم يا مولاي أنني قتلت بسيف حكمك الصارم، فأنت الخصم والحاكم، وكان يجب عليك التروي

والإمعان، لتفرق بين الحق والبهتان. قتلتَ بغير حق أيها الأمير، ولم أجد غير الله لي من نصير، مع أني والله عفيفة، ومنزهة عن النقائص شريفة، ولو طاوعت الأمير سليم، لما ذقتَ العذاب الأليم، وليس الحق عليك بل على الزمان، وسنجتمع في يوم تشيب فيه الولدان. وسلام الله العظيم المنان، على كل منصف بالعدل والإحسان.

الإمضاء: المغتفر لها النقية عفيفة البرية

علي: آه!

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

(لأمينة) وأين قتلها ذلك الخوان؟

أمينة: اعلم يا قرة العين، أن سليمًا أمر سيافَيْن أن يأخذاها إلى شعب الهلكات، ويذيقاها وولدها علقم الممات، ولم ندرِ بعد ذلك ماذا جرى، حيث إن السيافَيْن للآن ما حضرا.

علي: يلزم أن آخذ سليمًا مصفدًا إلى ذلك الشعب، وأحرق أحشاءه بالعذاب والضرب، وأستقصي عن مدفنها الطاهر، وأسقي ترب ثراها من مدمعي الهامر، وألازم بعدها العويل والحسرات، إلى أن يأتني هادم اللذات، فأسبل علينا يا بارئ النسم، ستار التوفيق والكرم.

(تنزل الستار.)

الفصل الخامس

الجزء الأول

(برية مقفرة – الأمير علي – الجند – سليم مصفدًا بالأغلال)

علي:

بشر عفيفة نخبة الأطهار أني عجلت لها بأخذ الثار
من فاسق كلم القلوب بغدره ومحا حيا المعروف بالأوزار
قتل الغلام وأمه متعمدًا ورمى فؤادي في لهيب النار
سحقًا له من ظالم متعمد بُعدًا له من جاحد غدار
فاليوم يومك يا خئون فمُت بما كسبت يداك بصارم بتار

سليم:

حاشا تعاملني بفعلي سيدي عفوًا فإن الحلم للأحرار
والعفو من كرم الطباع فلا تدع مني الرجاء على شفير هار

علي: أترجو مني العفو يا خداع، وتعلمني أنه من كرم الطباع، بعدما راودتَ مولاتك عفيفة، وكلَّفتَها ما لا تفعله كل طاهرة شريفة! ولَّما يئست منها يا خوان، قتلتها بالزور والبهتان، وقتلت ولدي، وأحرقت عليهما كبدي.

سليم:

أتيتُ ذنبًا عظيمًا وأنت للعفو أهل
فإن عفوتَ فمَنٌّ وإن جزيت ففضل

وإني أتمثل يا ذا الأفضال، بقول من قال:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أو لا فاسمح بحلمك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

علي: العفو يا ذا الخطيئات، يكون على الهفوات، والذنوب الصغائر، لا عن موبقات الكبائر. وأما جرمك العظيم يا ذا الحيف، فلا يستحق مقابلته بغير السيف. أو لا ... فأفضل العقاب والقصاص، برميك بالرصاص، فمُتْ أيها الجبان، فقد لقيتَ الهوان. (يمر سياف بسرعة قبل أن يرميَه بالرصاص فيرخي يده ويقول) إني أرى شبحًا مارًّا مر السحاب، فعليَّ به قبل أن يختفي في الهضاب (تلحقه الجند).
أمينة: أظنه يا مولاي أحد السيافَين، اللذين أمرهما سليم بقتل سيدتي قرة العين.

الجزء الثاني

(الجند – السياف – الأمير علي – أمينة – فطينة – سليم)

أمينة: هه ... هو بعينه يا مولاي الفخيم، فسله عما فعل بسيدتي ونجلك الكريم.
علي: وماذا فعلت بعفيفة البرية؟
السياف: هي على قيد الحياة يا ذا السجايا العلية.
علي: عفيفة على قيد الحياة؟
السياف: نعم، يا علي الجاه.
علي: وا فرحاه! وا طرباه! ولكن ما الذي ألجأكما لترك ما أمركما به هذا اللئيم؟
السياف: براءة عفيفة من كل فعل ذميم.
علي: وأين هي الآن؟
السياف: هي قريبة من هذا المكان؟

علي: أخبرنا يا باقعة، كيف كانت تلك الواقعة؟

السياف: حيث أذن مولاي في حسن البيان، فلا بد من إتمام الإحسان، وذلك بالإصغاء، وحسن الرعاية والإرعاء.

علي: كلي آذان، فعليك بالصدق في البيان.

السياف: عش سيدي واسلم، وتيقَّن واعلم أنه بعد أن أمرنا هذا الجحود، بتصفيدها في القيود، وضعناها في السجن، وقد عانت فيه كثيرًا من الحزن، حتى لقد جاءها المخاض في غيابه، ولم تجد من يواسيها بعنايته (يُظهر الأمير عليٌّ علامةَ استياء) إلى أن جاء أمركم الكريم، بقتلها وقتل ولدها الفخيم، فكان بمنزلة القضاء، النازل من السماء، وإذا نزل القضاء، وفُتحت له أبواب السماء، فلا يُردُّ ولا يُصدُّ، ولا حيلةَ في منعه لأحد، كذلك كان أمركم يا ذا العلاء، لا يمكن تلقِّيه إلا بالإذعان والإمضاء، فأخذناها وهي بحالة تبكي لها العواذل، وترقُّ لشكواها الليالي الموائل، فهزَّتْني الرحمة والفتوة، وحركتني الشفقة والمروة، إلى كشف الحقيقة، ودفع ما التبس عليَّ من غامض الطريقة، فأقسمَتْ لي بأغلظ الأقسام، أنها بريئة من العيوب والآثام، وأيَّدَتْ كلامَها بالبرهان القاطع، والدليل الدامغ، فأشفقنا عليها من الهلاك، وصبَبْنا جامَّ غضبِنا على هذا الأفَّاك (مشيرًا إلى سليم) وخشية من شرِّه تركناها في منقطع من العمران، غير مأهول بالسكان، ولكن نعمة الله أعلى من أن تدركها الأفهام، أو يحيط بها علم الأنام، ولا بد من أن تَتِمَّ كلمتُه، وتُنَفَّذَ مشيئتُه، ولولا الحرص والأمل، لبطل العلم والعمل، ولما انتظم أمر المعاش، ولا اهتم لادخار قوت ولا رياش، ولا زرع زارع ولا غرس غارس، ولا بنى بانٍ ولا اخضر يابس، ولَانقرض إذ ذاك نظم العالم، وبانقراضه تنقرض أمور بني آدم، فقد أرسل الله الرحيم، شاة من فيضه العميم، فانتفعت بصوفها ولبنها، وآنَستْها في وحدتها وحُزنها، ثم أسعدتني الظروف بمعرفة المغارة، وهذا إيجاز ما حصل يا صاحب الإمارة. فأمَا وقد عرفتَ الخطأ من الصواب، وتبيَّنت الرشد من كلامي والخطاب، فما عليك إلا أن تنتقم من هذا الجحود، وتُسكنَه مظلمات اللحود؛ ليكون عبرة لمن ينسج على منواله، وينهج نهجه من أمثاله، وبغير ذلك تفيض اللئام فيضًا، وتغيض الكرام غيضًا، فيستفحل الداء، ويعز الدواء.

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي فالنصح أغلى ما يباع ويوهب

علي: إن لساني عاجز عن مدحك والشكران، على ما ابتديتَه من الجميل والإحسان، وسأتبع كل ما أشرت به علي أيها الكريم، ولا تحسبنَّ عليًّا يعفو بعد إذن عن هذا اللئيم. (للجند) فاذهبوا معه الآن، وائتوني بها وولدي لتزول عني الأشجان (يذهبون).

الجزء الثالث

(بعض الجند – علي – سليم (مكبلًا بالقيود))

علي:

إذا ظالمًا يستعمل الظلم مذهبًا ولَجَّ عتوًّا في قبيح فعاله
فكِلْه إلى صرف الليالي فإنها ستبدي له ما لم يكن في حسابه
فكم قد رأينا ظالمًا متجبرًا يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابه
طغى وبغى حتى إذا غرَّه البَقا أناخت جميع النائبات ببابه

الجزء الرابع

(الجند – عفيفة – طاهر – الأمير علي – سليم)

علي (لحن أوج أصول أقصاق ٩ من ٨):

إن هذا اليوم يبدي ألسنا تثني عن النفوس
إذ غدا للبدر يهدي كوكبًا يغني عن الشموس
وبدا الدهر بسعد ضاحك السن بعد العبوس

طاب الملتقى والدهر انتقى
يومًا أشرقا قال لي غنِّي

(يُقبِّلان بعضهما ويحمل ولده على صدره ويُظهران كثيرًا من علامات الشوق.)

عفيفة: هذا يا مولاي الفخيم، صديقك الأمير سليم، المتصف بأنواع الكمال، المتحلي بزينة الأدب والجمال، الذي ما له نظير بالمعارف، والشمائل الحسنة واللطائف، الصادق الأمين، الذي لا يخون ولا يمين (بتهكُّم).

علي: لك يا عفيفة أكثر من هذا التأنيب، وسنخلص من رؤية هذا الكئيب، فذُقْ أيها الخئون، علقم المنون (يضربه بالرصاص فيقع يتخبط).

عفيفة: الحمد لله الكريم، الذي أعاد على ذلك اللئيم، عاقبة الغدر والشرور، وأراه نتيجة نكث العهد المبرور.

علي: قد جعلتك أيها السياف الهمام، نائبًا لديوان الأحكام، واتخذتُك من الآن سميرًا، وفي أموري ناصحًا ومشيرًا، وسأفيض عليك من ملابس الإنعام، وخلع الأفضال والإكرام، ما يجعلك في عيشة هنية، وحالة مرضية. (للجند) أما أنتم فاشكروا الباري على ما أولانا من النصر، والفوز على الأعداء والظفر. فقد تركنا جلَّهم مقرَّنين في الأصفاد، وعبرة للساعين في الأرض الفساد، وجزءًا منهم صاروا كرميم وهشيم، طلع في ريح عقيم، والباقي نكصوا على الأعقاب، وطاروا بخوا في العقاب، واستبدلوا بمسكة العزائم، هتكة الهزائم، وما ذلك إلا باتفاق قلوبكم أيها المخلصين، ومعرفتكم لواجب الوطن والدين. ومن قصتي علمتم أن مخالطة ذوي المنابت الوضيعة، مقوضة لعمد البيوت الرفيعة، ومعرفتهم تجرُّ ندمًا، وتعقب حسرة وندمًا؛ وذلك لأن لئام المكسر إن استغنوا بطروا وفتنوا، وإن افتقروا قنطوا ووهنوا. فأمعنوا النظر، ودققوا الفكر، إلى ما فيها من قمع نواجم الفخر، وقدع طوالع الكبر، ونتائج سوء الأفعال، وذميم الأعمال، وانظروا الفرق بين النتيجتين، والبون الشاسع بين الخصلتين، فضيلة عفيفة الإزار، الطاهرة من الأوزار، وهمتها التي تعزل السماك الأعزل سموا، وتجر ذيلها على المجرة علوا، أو رذيلة سليم الذي وقف في ظل الطمع، وترك التقى والورع، ولبس ثوب الخذلان، وجاهر بالبغي والعدوان، وقابل النعمة بالكفران، فالأولى حفظها الله في الدنيا من الهلاك والبوار، وسيحفظها بإذنه في الآخرة من النار.

إذا أكرم الرحمن عبدًا بعزه فلن يقدر المخلوق يومًا يهينه
ومن كان مولاه العزيز أهانه فلا أحد بالعز يومًا يعينه

أما الثاني فقد قضى نحبه، ولقي بأسود صحيفة ربَّه، وآل أمره إلى وبال، وسوء حال واضمحلال، وصار مضغة في كل لسان، وأضحوكة كل إنسان، وفي أخراه إلى سقيا الحميم، وسكنى الجحيم؛ لأنه جحد النعمة بعد أن رفعته عن خمول، وغمط الصنيعة وقد أطلعته عن أفول. فتجنبوا الصرعة في المهاوي، والضلال في المغاوي. وخذوا نهج الخير فتهتدوا، واصدفوا عن سمت الشر فتقصدوا، واجنحوا إلى الطاعة، ولازموا أهل السنة والجماعة، واشتملوا على الخيرات قبل أن تمزقوا، واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا.

ولا تهتموا في إدراك الغرض، وتُذهبوا جوهر نفوسكم في تحصيل العرض، ولا تستبدلوا الضلالة بالهدى، وترتدون بما يوقعكم في الردى، إني لكم لمن الناصحين (تُظهر الجند شيئًا من التأثر والاستحسان).

قائد: شكرًا لك يا مولانا على حسن عنايتك، وحمدًا على نصحك وهدايتك. فكلنا بها قريري العين والناظر، منشرحي الصدر والخاطر، متعظين بأقوالك التي تسرُّ المحزون، وتسهل الحزون، وتجتذب الألباب وتستلب النفوس، وتنفس كرب المكروب وتزيل البئوس. فلا زالت الأيام طوع يديك، ولا زلنا منك وإليك.

علي: بارك الله في آرائكم السديدة، وهممكم السامية الرشيدة. فالزموا منازلكم ثمانية أيام؛ لتستريحوا من عناء الصدام. واشكروا المولى العظيم، على ما أغدق علينا من النعمة والتكريم.

(مقام أوج أصول دارج ٦ من ٤.)[١]

أمير العصر جليل القدر عظيم الفخر بلا نكر
فدم في يسر طويل العمر مطاع الأمر مدى الدهر

سلسلة

وسيفك صان حوزة البلدان وهو في الميدان القضاء الشافي

دور

شقيق السعد فخارك يهدي جميل الحمد مُنَى القصدِ
فعش في رغد مصون العهد جزيل الرفد بلا ضد

سلسلة

ونحوك مال منتهى الآمال واستراح البال بالحبيب الوافي

[١] قد: «أدر راحاتي».

هنـــداوي